ولم يقف الشعراء القدماء عند وصف عام للمدن وإنما تغلغلوا فى صميمها ، فرسموا أنهارها وجبالها وأوديتها وقصورها ، وبرع الأندلسيون فى ذلك براعة لا يسبقهم فيها شاعر مدّاح. فلكل نهر قصة ، ولكل بلد فضيلة ومكانة ، تجد بعضه فى كتاب « الروض المعطار » عن جغرافية الأندلس ، فتسمع لابن عبد ربه وابن خفاجة ، وابن درّاج ينشدون أروع الشعر فى جمال البلدان والثناء على هوائها وإقليمها ومناظرها .

* * *

والشعراء المحدثون مدحوا البلدان كذلك ، فأثنوا على ما رأوا فى الوطن وغير الوطن ، فقال شوقى فى مدح باريس ، والنيل ، وبردى ، ودمشق ، وزحلة ، ولبنان ، والآستانة ، وأسبانيا .

ومن قوله فى دمشق :

قَالَ الرِّفَاقُ ، وَقَدْ هَبَّتْ خَمَائِلُهَا ... الأَرْضُ دَارٌ لها الفَيْحَاءُ بُسْتَانُ

جَرى وصَفَّق يلقانا بها بَرَدى ... كما تلقَّاك دُون الخلد رضوانُ

فوصف مدخل دمشق والخمائل من يمين وشمال تحف بالوافد وتتلقاه فكأن الدنيا دار واسعة وبستانها (الفيحاء) ، وبردى يشق الطريق مسرعاً ليرحب بالزائر الكريم ، كأنه رضوان فى جنان الخلد . ومن قوله فى بيروت :

لبنان والخلد اختراع الله لم ... يوسم بأزين منهما ملكوته

هو ذروة فى الحسن غير مرومة ... وذرا البراعة والحجى بيروتُه

فهو يجعل لبنان مقروناً إلى الجنه من أجمل ما أبدع الله ، لأنه ذروة فى الحسن ، وعاصمته رأس فى البراعة . ومدح مطران مسقط رأسه بعلبك من لبنان وأنشد فى الثناء عليها قصيدة عامرة . وقد شاقه الحنين إليها ، ومدح عادل الغضبان بلده حلب ، وقد طال مقامه فى مصر واشتد حنينه إليها فلما استقبلته